

أصداء صمت المقاعد الفارغة:

ظاهرة الغياب المدرسي بين جدلية التمرد وصرخة الاستغاثة

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان



من تساؤل عميق يرتبط بقضية أعمق مما تبدو في ظاهرها، تظهر جدلية إنسانية تخفي حقيقتها عن الكثيرين وتتعلق بقضية الغياب المدرسي، إذ إن هكذا قضية ظاهرها غياب طلبة عن المدارس وعمقها بيان مجتمعي وإنساني صارخ، إذ يعكس هذا التساؤل وهذه الجدلية جانبين، أحدهما يرتبط بالكشف عن كيفية كون الغياب يشكل قضية حاضرة بقوة في ملفات القضايا التربوية، والثاني يجسد فكرة أن غياب الطلبة قد يكون تعبيراً عما يعانونه من وجودهم في المدارس.

وفي سبيل الخوض في غمار هكذا تساؤلات، فقد وجب الوقوف عند هذه الظاهرة السلبية التي تعاني منها معظم مدارسنا في الوطن العربي، وسبرها من العمق لا تناولها ظاهرياً، فظاهرة الغياب المدرسي ليست ملفاً إحصائياً تتداوله المؤسسات التربوية وحسب، ولن تكون حالة انضباطية تعالج بالعقوبات الإدارية أيضاً، وإنما في جوهرها هي مشكلة مجتمعية إنسانية تتعلق بمعنى وقيمة الوجود الإنساني داخل مؤسسة مصممة -نظرياً- لخدمة الإنسان وتطوير إمكانياته، ففي تغيب الطلبة إشكالية بعدها لا تتعلق بانسحاب من مكان، وإنما هو تجسيد لفكرة كاملة للهروب من الوجود والمعرفة والسلطة، وانسحاب من مكان أصبح مصنعاً ومعلم هو الأساس والمركز للعملية التعليمية، أمام طالب يُنظر له كمتلق سلبي، وتغيب آلية الاستماع الفعالة، وأولوية تمنح للنتائج والعلامات لا للتجارب والخبرات.

فغياب الطلبة المدرسي قد يأخذ أبعاداً ويضعها أمامنا في موازنة ومقاربة إنسانية قبل أن تكون إحصائية ونظامية، ناهيك عن تأثيرها النفسي على الطلبة، مما قد يحدو بهم لانتهاج سبيل غير قويم، مدفوع بعشوائية وانفعالات هوجاء، فيأتون بتصرفات وسلوكات تعارض الدين والقيم المجتمعية السائدة، كالتدخين والتعاطي وغيرها، مما يستنزف جهد وطاقات المجتمع في وضع آلية علاجية لهذه الفئات من الطلبة، وهذه الأبعاد هي:

البعد الأول: يظهر لنا أن التغيب المتكرر فعل مدفوع بشعور إنساني من منطلق تأكيد تمرّد الطالب على النظام المدرسي في سبيل إثبات ذاته، وقدرته على مواجهة الأنظمة الموضوعة والتي قد يراها عبثية لا طائل منها، فحين يقرر الطالب التغيب فهو يرى بأنه يمارس حريته في تحدّي ما يفرض عليه من قوالب جاهزة، فهو يرفض السّلطة، والهيكل الصّارم للمدرسة من جدول زمني، وقواعد، وعقوبات، وقد يمثّل في غيابه ثقافة فرعية سائدة ضمن أقرانه إذ يعتبر الغياب من المدرسة فيها بطولة، وقد يكون غيابه ردّ فعل على مناهج غير جذابة أو غير مرتبطة بواقعه، وقد يكون مردهً لازدحام الفصول الدراسية التي تبتّ شعور الضّغط النفسي والمزاجية، وقد يكون بسبب الانفصال بين حاجات الطّلبة من ناحية، والمعارف التي تقدّمها المدرسة من ناحية أخرى، أو بسبب الظروف المناخية القاسية، والظروف المرضية التي قد يتعرّض لها الطّلبة نتيجة للعدوى أو التعرض لظروف غير آمنة بالمدرسة، إلى جانب التحاق معظم الطّلبة بدروس خصوصية سواء في المنازل أو عن بعد عبر منصات إلكترونية - والتي سيفرد لها الاتحاد العربي للمدارس الخاصة مقالاً خاصاً بهذه القضية - التي تسهم في وجود ما يسمّى بظاهرة المدارس الفارغة، ومهما كان السبب فإنّ الطالب يرى بغيابه حرية لرفض السّلطة المفروضة عليه.

البعد الثاني: يعكس فكرة أعمق من فكرة التمرّد، لتكشف عن ألم تربوي، فالغياب هنا ليس فعلاً إرادياً خالصاً، وإنّما هو استجابة لألم نفسي أو اجتماعي يدفعه للغياب، فقد تكون هنالك مشكلات أسرية كالعنف الأسري، أو الطلاق، أو إهمال الوالدين، أو اضطرابات نفسية، كالاكتئاب، والقلق الاجتماعي، والتّهميش المقصود من قبل المعلّمين أو الأقران، أو تعرّض الطالب للتّمرّد المدرسي، فيكون الغياب محاولة لتجنّب الإذلال اليومي من قبل الزملاء أو حتّى المعلّمين، ومهما كان السبب هنا، يظهر الغياب كصرخة استغاثة مفادها: "أنا أتألم، إذن أنا أستغيث"، إذ إنّ هناك العديد من الدّراسات التي تشير إلى وجود ارتباط بين التغيب المدرسي المتكرر والاضطرابات النفسية كالاكتئاب والقلق، وتثير تساؤلات عن مدى تأثير البيئة المدرسية ودورها في حدوث هذه الظاهرة، في الوقت الذي يفترض فيه أن تكون حاضنة للنمو والتطور، لا بيئة محفّزة للمعاناة النفسية، وإنّ كان الأمر كذلك، وواجه الطّلبة صمتاً من قياداتها حول هذه الأجواء السلبية وتأثيراتها العكسية، فإنّ أبسط ردّ فعل له سيكون صراحاً بلغة الغياب، إذ إنّ فشل المدرسة بالنظر إلى وجه الطالب والاعتراف بوجوده الفريد واحتياجاته الخاصة، يعطي للغياب سمة الاستجابة المنطقية أمام الفشل القيادي والإداري للمدرسة.²

البعد الثالث: يضعنا في منطقة رمادية غير واضحة المعالم، فيغدو القلق من تحقيق ذات الطالب لنفسه، وما يجده في أوقات كثيرة من وقوعه في حصار بين متناقضات مجتمعه، وبين ما يريده ويميل له، وما هو مطلوب منه ومضغوط عليه من الأسرة وغيرها، وبين هويته الشخصية والقلب الاجتماعي الذي يفرض عليه، وبين احتياجاته النفسية وتوقعات النظام المدرسي، كل هذه التناقضات هي منطقة رمادية توقعه بقلق يتعلق بقدرته على الاختيار بين إمكانيات متعددة في عالم لا يقدم إجابات واضحة، فيغدو الغياب والانسحاب "صرخة وجودية" للتعبير عن الحيرة بين الالتزام بالمؤسسة وبين البحث عن الذات الحقيقية، فهو في سعي لتحقيق وجود حقيقي أصيل مع ذاته والآخرين، لا وجوداً زائفاً تقوده الأرقام والإحصاءات السنوية التي ترضخ لمعايير مثالية لا تمت للواقع بصلة.

فالنقطة المحورية هاهنا، ترتبط بسؤال :

هل أنصتنا جيداً لصوت الطالب قبل أن يغيب ويستمر بالغياب بصورة متكررة ؟

وهذا السؤال يقودنا إلى أن الإصغاء الحقيقي ليس مجرد سماع كلمات الآخر، بل اعتراف بوجوده في علاقة "أنا وأنت"، فالمدرسة التقليدية، التي تتبنى نموذج "التعليم البنكي" وتنظر للطلبة كأوعية لتخزين المعلومات، ويختفي بين جدران صفوفها الحوار الحقيقي، سيكون الغياب هو اللغة البديلة للتواصل، في مقابل المدارس الديمقراطية التي تقدم نموذجاً واقعياً لمعنى الإصغاء، إذ يصبح صوت الطالب مسموعاً في بناء قواعد المدرسة وسياساتها، مما يعني نتيجة حتمية بتقلص نسب الغياب بشكل ملحوظ.

فضلاً عن أن النظام التربوي التقليدي الذي يتعامل مع الغياب من منظور عقابي قائم على مفهوم "الخطأ والعقاب"، لن يحدث التغيير المنشود، في مقابل النظم التربوية الحديثة التي تدعو إلى تبني معرفة قائمة على الفهم لا الحكم، فعوض طرح تساؤل عن كيفية عقاب الطالب الغائب، فقد وجب البحث عن إجابات **لكيفية فهم دلالات غياب الطلبة، من خلال اعتبار الغياب صوتاً**

ينتظر الفهم والإصغاء إليه.

هذا وقد ظهرت العديد من الأنظمة التربوية الحديثة العالمية والمحلية التي فهمت هذه المعادلة الإنسانية وأجابت عن هذا التساؤل، وأماطت اللثام عن حقيقة التغيب، وعرفت أنها ليست بصدد معالجة أرقام، وإنما بصدد وضع أنظمة وآليات تعيد ثقة الطلبة بمؤسسات التعليم، وأنظمتها، وتجذبهم للحضور لا الغياب عنها، فكانت لها خطوات وإستراتيجيات فاعلة لمكافحة هذه الظاهرة.

ففي **المغرب** تم تطبيق نظام "مدرسة بلا أسوار"، التي تؤكد على فكرة أن التعليم قضية مجتمعية لا بد أن يشارك فيها كافة الأطراف من الأسرة والمدرسة وأفراد المجتمع ومؤسساته المختلفة، وفي **فنلندا** تم تبني نموذج فلسفي تربوي يعترف بفردية الطالب وحرية وحقه في المشاركة في صنع تجربته التعليمية، وفي **اليابان**، اعتمدت المدارس نظام "التوكاتسو" وهو نهج تربوي يركز على بناء العلاقات الاجتماعية والشخصية للطلبة، إذ يتم إشراكهم في أنشطة جماعية ويتحملون مسؤوليات داخل المدرسة، مما يعزز انتماءهم للبيئة المدرسية، وفي **سنغافورة**، تم تطوير برنامج "المدرسة الصديقة" الذي يهدف إلى جعل المدرسة بيئة محفزة وجاذبة من خلال تصميم مساحات تعليمية مرنة ومفتوحة، وتوفير أنشطة لاصفية متنوعة تلبي ميول الطلبة، وفي **ألمانيا**، تبنت المدارس نظام التعليم المزدوج الذي يجمع بين التعليم النظري والتدريب المهني العملي، مما يجعل التعليم أكثر ارتباطاً بسوق العمل وبالتالي أكثر جاذبية للطلبة، وفي **البرازيل**، تم تطبيق نموذج "مدارس المجتمع" التي تفتح أبوابها للمجتمع المحلي في عطلات نهاية الأسبوع وتقدم أنشطة ثقافية ورياضية واجتماعية، مما يقوي العلاقة بين المدرسة والمجتمع ويزيد من شعور الطلبة بالانتماء، وفي **كندا**، استخدمت إستراتيجية "التعلم القائم على المشاريع" إذ يعمل الطلبة على مشاريع حقيقية تتصل باهتماماتهم وبقضايا مجتمعية، مما يجعل التعليم أكثر معنى وجاذبية، وفي **أستراليا**، تم تطوير نظام "المدرسة المرنة" الذي يتيح للطلبة جداول دراسية مرنة وخيارات متعددة للمواد والأنشطة، مما يراعي الفروق الفردية ويلبي احتياجات الطلبة المختلفة.

وفي هذه التجارب وغيرها تطبيق فعلي لمعنى أن يكون التعليم هو النقطة التي نقرر فيها ما إذا كنا نحب العالم بما يكفي لنتحمل مسؤوليته، وأولى الخطوات التي تسبق أية إستراتيجية تكمن في **محبة الطلبة بدرجة تكفي لتسمح لنا بالاستماع لما يقولونه من خلال صمتهم وغيابهم وهروبهم**، وفهم وتحليل دوافع الطالب، وملاحظة حالات تكرار الغياب وما يصاحبه من علامات مثل: العزلة، التدهور الدراسي أو العدوانية، وفهم واقع الغياب أهو فردي بحت، أم جماعي؟ أهو في أيام محددة أم عشوائية؟ أهو مدفوع من فكرة داخلية وذاتية لدى الطلبة، أم مقصود ممنهج من المعلمين في مناسبات وأيام معينة؟

ولربما من خلال هذه التساؤلات وإجاباتها سنستطيع تفهم مبررات الغياب ومناقشتها والبحث عن حلول لها، فإن كانت من ذاتهم، فهناك أسباب تناقش، إلا أن الأدهى والأمر، أن يكون الغياب مدفوعاً بتشجيع من المعلمين لهم، وهنا تستوقفنا فكرة ضرورة تحليل دوافع المعلمين وراء هكذا تصرف يقوض أركان ورسالة العملية التعليمية التي هم جزء منها.

وهنا تظهر أدوار ومهام مؤسسات التنشئة المجتمعية لتآزر المؤسسات التعليمية أمام هذه الظاهرة، فيكون هناك حاجة من المدارس والأسر وبقية المؤسسات المجتمعية لتطبيق العديد من الإستراتيجيات التي تحفز هذا الدعم، وتفسح المجال للحوار والفهم وتُقصي العقاب، من مثل تفعيل برامج الإرشاد الطلابي لفك شفرات الغياب بدل العقاب، والسعي لجعل المدرسة بيئة جاذبة عبر أنشطة لا صفية، وإنشاء برلمان طلابي في كل مدرسة له صلاحية طرح مقترحات للإدارة. فضلاً عن تعيين مرشد طلابي مُدرب على الحوار الفعال وليس موجوداً للتوجيه الأكاديمي وحسب، ومساندته في الخروج من هامشية دوره الذي يقف عند حد استدعاء أولياء أمور الطلبة المشاغبيين أو ذوي الأداء التحصيلي المنخفض أو استدعائهم لأخذ أبنائهم المرضى، أو تبرير الغياب بصورة سطحية، إذ وجب عليه أن يقوم بعقد سلسلة من اللقاءات الدورية لأولياء الأمور بهدف دراسة ومناقشة بعض المشاكل الطلابية

الجماعية، أو إقامة البرامج الثقافية والتوعية لأولياء الأمور بهدف تنويرهم وإرشادهم لكيفية مواجهة المشكلات الدراسية أو السلوكية، أو قيامه بدراسة بعض الظواهر السلوكية ذات المردود السلبي على العملية التعليمية كظاهرة الغياب.

إلى جانب العمل على إدماج القيم الإنسانية والمهارات القيادية في المناهج الدراسية لصقل شخصية الطلبة، لما لها من تأثير عميق على الطلبة في حالة تعريضهم لها في سنوات التعليم المبكر، فيكون ذلك من باب الوقاية من الأمر قبل حدوثه، إذ إن هذه القيم والمهارات كفيلة ببناء درع يقيهم من الانحرافات السلوكية غير المرغوب فيها مستقبلاً، ومنها ظاهرة التغيب المدرسي.

إن ظاهرة الغياب المدرسي ليست مجرد "خلل" في النظام التربوي يحتاج إلى "إصلاح"، بل هي مرآة تعكس أزمة عميقة في علاقة الإنسان بالمؤسسة، وفي فهمنا لماهية التعليم والمعرفة والسلطة، وفي قصور الطلبة عن الإيمان بفكرة أن المدرسة موجودة من أجل الطالب لا العكس، وهذا كله يدفعنا لضرورة إعادة التفكير في الفلسفة التربوية بأكملها، وأن نتوقف عن لوم الطلبة في أمر قد يكون السبب فيه لغة المدرسة التي لم تفهمهم من البداية، ومن هنا فإن الاتحاد العربي للمدارس الخاصة سيقوم بطرح مبادرة - قريباً - من شأنها أن تساهم باقتراح حل لظاهرة التغيب عن المدرسة والحد منها أو تقليصها، وسيتم عرضها في مقال الأسبوع القادم بمشيئة الله.

وحتى ذلك الحين، فإن الاتحاد العربي للمدارس الخاصة سيكون مرحباً أيما ترحيب بمشاركاتكم ومقترحاتكم لتقديم وطرح أية مبادرات أو أفكار يمكن تطبيقها وتطويرها على مستوى مدارس الوطن العربي، من منطلق السعي لإيجاد حلول للتصدي لظاهرة التغيب المدرسي، لذلك فإن باب التواصل مع أمانة الاتحاد العربي للمدارس الخاصة من خلال منصة الاتحاد سيكون مفتوحاً للجميع.